كلمة الدكتور الجعفري في الذكرى السنوية الثانية والثلاثون لاستشهاد زينب العصر(بنت الهدى) بتأريخ
2012/4/7

بسم الله الرحمن الرحيم
السلام عليكم جميعاً ورحمة الله وبركاته..
قال الله (تبارك وتعالى)، في محكم كتابه العزيز:
((وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ)).

تبقى السُنـّة الإلهية في خلق البشرية من الذكر والأنثى حقيقة ثابتة لا تتبدّل مهما حاولت بعض الثقافات تحريف هذه الفطرة، والتدخّل في السنن الكونية، ومن يحاول أن يغيّر فيها سيرتطم بصخرة الحقيقة، ويتلاشى، وتبقى الحقيقة قائمة مهما أراد الآخرون تغييرها.. الزوجية حقيقة في هذا الوجود ليس في المجال الإنسانيّ فحسب، ولا في المجال الحيوانيّ والنباتيّ، بل إنها حقيقة ثابتة في كل ذرّة من ذرّات الوجود.

إذا كانت مسيرة المرأة على طول التاريخ مضمَّخة بالدم، ومحمَّلة بالعذابات، وكانت أمم العالم قد ساهمت بشكل أو بآخر بثقافاتها في هذه الجريمة التي صُبَّت على المرأة على طول التريخ وعرضه، فإننا نجد في عمق قيمنا وفي نظرياتنا المعرفية لوناً آخر من الفكر، وقدّمنا على مسرح الحياة مصاديق تحرّكت في مختلف مراحل الزمن، فتسنـّمت المرأة موقعاً متقدّماً، وصدحت بصوتها مجلجلة في كل الآفاق بنماذج تصلح أن تكون قدوة، بل أسوة للرجال والنساء.

كانت الزهراء سيد نساء العالمين (صلوات الله عليها) نموذجاً كاملاً، وكانت زينب بطلة الطف هي الأخرى النموذج الكامل في الجهاد، وهكذا كانت حلقات التصدّي من النساء تترى في كل مراحل التاريخ، لكننا نبقى بأمسّ الحاجة إلى النموذج المعاصر الذي يلتقي فيه الفكر، والأدب، والجهاد، والتضحية بالنفس، فكنا على موعد مع القدر بأن تأتي الشهيدة العلوية آمنة الصدر؛ لتكون مصداقاً تلتقي عندها هذه المفاهيم حيث صدحت بصوتها أديبة شاعرة عالمة ومربّية؛ لتوشّح حياتها بإكليل الشهادة.

ليس سهلاً أن تتسنـّم المرأة موقعاً واحداً متقدّماً في أيّ صعيد من هذه الصُعُد، أما أن تجمعها جميعاً فهو أقرب إلى المستحيل مما هو إلى الإمكان.. هكذا كانت بنت الهدى، وكذلك أرى فيكنّ... إننا بحاجة إلى أكثر من قدوة على أكثر من صعيد.. قدوة تقتحم المؤسسة، وتصدح بصوتها على أنها امرأة تحمل قيماً، وتتحدّث بالفكر، وتكون مصداقاً للقيم، وذلك الفكر من دون أن تستحي من أنها أنثى.

طلع علينا العصر الحديث بموضات جديدة.. تجاوزنا للتوّ مرحلة عُقدة الذكورية في بلداننا، وبقيت بلدان الغرب حتى اليوم غاطسة في عُقدة البطرياركية والذكورية، واليوم نجد شيئاً جديداً ليس فقط غلبة الذكورية في بعض المجتمعات، إنما عُقدة الاستذكار وتشبُّه المرأة بالرجل، وعُقدة الاستئناث وتشبّه الرجل بالمرأة في بعض المجتمعات الغربية، وقد تسرّبت إلى مجتمعاتنا الشرقية تشبّه الرجل بالمرأة بمختلف الأساليب.. الإنسان هو الإنسان خُلِق بقانون الزوجية، والزوج كما يقول فقهاء اللغة: كل شيء له شبيه يشاكله فهو زوج.. المرأة والرجل:
((يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)).

البطولة مطلوبة في ساحة الذكورية وفي ساحة الأنوثية، وهنالك أبطال وبطلات في مسرح التاريخ، بطلات شققن الطريق، وتحوّلن إلى مشاعل نور احترقت كالشموع؛ ليُضِئن الطريق للآخرين... المرأة ليست قدوة للمرأة فقط إنما قدوة للرجل أيضاً.. صريح القرآن يقول:
((وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ)).

هي (آسيا بنت مزاحم)، هذه هي البُنية والخلفية المعرفية لنظرتنا إلى المرأة، ولم تأتِ من وحي الادّعاءات، ولا من وحي المزايدات والعواطف إنما هي نظرة موصولة معرفياً ومجسَّدة من حيث التطبيق والمصداقية في كل منطقة يتحكّم فيها الفكر، أما أن تنزاح المرأة في بعض مجتمعاتنا بالتقاليد والعادات فهذه مشكلة عادات وتقاليد، وستُهزَم كلما امتدّ الفكر، أما مشكلة المرأة في الغرب فهي مشكلة فكر.

أنا أنظر إلى المرأة، وأتطلع إلى أنها عندما تسمى (ربّة بيت)، أقف عند هذا المصطلح: هل البيت شيء عاديّ، ومحطة عابرة، أم هو منجم أطفال وأبطال، ومصنع فكر، ومعمل وطنية وإخلاص وإذا ما أهمل البيت فسينقلب على ساكنيه، وينتج مجرمين؛ إذن البيت مؤسسة، بل هو أخطر مؤسسة على الإطلاق. هذا ما انتهى إليه أصحاب التجارب الذين كان منهم غورباتشوف في كتابه (البروسترويكا)، حين كان يتحدث عن تجربة الأممية الشيوعية العالمية تحت عنوان (في الأسرة) يقول: منذ عام 1917 حين انتصرت الثورة البلشفية، إلى عام 1985 حيث انتهينا، وخلصنا بعد مراجعة دقيقة لمسيرة الأسرة وجدنا أن الأزمات التي عصفت بالشباب والشابات كان يقف وراءها عامل واحد وهو خروج المرأة من البيت.

نحن إذن أمام مؤسستين، مؤسسة البيت والمؤسسات الاجتماعية الأخرى.. لا نريد أن تتقوقع المرأة في البيت، لكننا نريد أن تدرك ما يعني أنها (ربّة بيت) إنها ملكة البيت، أما أن تكون ربّة بيت كأنها أمر هامشيّ، أو تركن إلى البيت؛ لأن المؤسسات أُغلِقت بوجهها فهذا قصور ثقافيّ. البيت مؤسسة، ونحن أمام مؤسستين الثابت المؤسسيّ

والمتحرّك المؤسسيّ في البيت.. لا يستطع أحد أن ينهض بهذه المهمة المقدَّسة، كما تنهض المرأة بها بنتاً وأختاً وزوجة؛ لذا لا يساوم أحد أن المرأة يجب أن تنطلق من البيت؛ لأننا ندرك أن انطلاقتها من البيت بالمعنى الذي تروّج له بعض الثقافات المنحرفة يعني أننا نهدم البيوت على ساكنيها، لكننا لا نريد أن تقتصر المرأة في حركتها في البيت فقط، إنما تنطلق منتصرة، مظفرة، فنانة، رياضية، فيلسوفة، مربية، ومختصة في الاقتصاد والسياسة، وفي كل شيء في كل المؤسسات الاجتماعية، ولو كان للرجل القدرة والقابلية على أن يغمر البيت بالحبّ كما تغمره المرأة، وبالتدبير والعوامل التكوينية لقلنا: فليتقاسم الاثنان مسؤولية البيت.. هذه ميزة لتشريف المرأة؛ إذ تمنح البيت ما لا يستطيع أن يمنحه الرجل؛ لذا أنا أنظر إليكُنّ، وأقدّر الدور الرائع الذي تضطلعن به في مجال السياسة والطب والخدمات والتعليم، وكل شيء.

أنا أدرك جيداً أن المرأة التي تعمل في المؤسسة هي أكثر إنتاجاً من الرجل، وهذا ليس ادّعاءً عاطفياً فسجلات الإجرام والفساد كشفت أن نسبة النساء للرجال تضاءلت إلى درجة تقترب من الصفر، هذه حقيقة.. راجعوا السجلات وإحصاءات الدول التي سبقتنا، وانفتحت على حد سواء بين الرجل والمرأة، ستجدون أن المرأة في مجالات الإنتاج دقيقة، وهي تبتعد، وتهرب من الفساد هروب الشاة من الذئب بصورة عامة.

قد تكون هناك نسبة قليلة، لكنها لا تُقارَن في مجال الفساد، كما هي في أوساط الرجال.. هذه المزايدات التي نسمع بها ثقافة الأنوثة.. ثقافة الإثارة.. المرأة قُدّاس لا ينبغي أن ينخدع أحد بأن الدفاع عن المرأة يختزل بأنها أنثى، وأن المرأة فقط وفقط عنصر إثارة، وأن جمال المرأة هو جمال الوجه.. ليس الأمر كذلك فالمرأة تمتلك جمالاً معنوياً هو جمال العقل، والإرادة، والسلوك، والخُلُق والقيم، وهذا الجمال يمتدّ، ولا يقف عند ربيع العمر، إنما يمتدّ إلى ربيع الحياة حتى اللحظات الأخيرة.

عانت المرأة في مجتمعاتنا الكثير، وليس فقط في مجتمعنا فمنذ عام 304 بعد ميلاد سيدنا المسيح (عليه وعلى نبينا وآله افضل الصلاة والسلام)، قصة روما الشهيرة عن هلري، التي أدّى ما أدّى بها ذلك الحكم الجائر الذي اتُخِذ بحقها أو بحق بناتها، وفي روما عام 304 قُتِلت ابنتها عندما ذهبت هنالك، واعتصمت حتى سحبتها هي ومجموعة من الجنود وأولادها جاء القرار الجائر للقاضي بأن تُحرَق وهي حيّة.

هذه المأساة من جملة المآسي التي حصلت في أوروبا، وفي عام 1429 نلتقي مع السيدة الشابّة الموهوبة جان دارك عذراء أورليان 1429 التي ناضلت، وانتقلت من قرية إلى قرية، وحرّرت.. أورليان لم تكن في تاريخ فرنسا امرأة عادية، إنما كانت سرّ الانتصار لفرنسا؛ لذا قلّدت الأمير وشاح الانتصار، وسلّموها وهي حيّة للبريطانيين، وأحرِقت وهي حيّة.

صحيح عند العرب قبل الإسلام كان الوأد، وصحيح أن مجتمعاتنا لاتزال تغصّ ببعض العادات والتقاليد، لكنّ الشهيدة (قدس الله نفسها الزكية)، هي من مجتمع عربيّ، ومن مجتمع إسلاميّ، ومن عاصمة العلم - النجف الأشرف - صدحت بصوتها أديبة، لماذا نقرأ، ونُعجَب بالسيدة مدام آستور في عام 1853 قبُيل الحرب الأهلية في أميركا التي نشبت عام 1860 إلى عام 1865 حيث كتبت (قصة كوخ العم توم)، حين ساهمت في إخماد الفتنة التي حصلت بعد الحرب الأهلية في أميركا بين الشمال والجنوب، ولا نذكر العلوية بنت الهدى.. لماذا نخجل من تقديم شخصياتنا.. لماذا لا نتغنى بهذا العطاء الثرّ في مجال الأدب والفكر والعلم والعفة والبطولة والمواجهة.

الكلمة هي الكلمة، والمصباح هو المصباح، فأن تشعل مصباحاً في الظلام غير أن تشعل مصباحاً والشمس في رابعة النهار. العلوية بنت الهدى صدحت بصوتها في وقت قلّ الناصر، بل انعدم الناصر والمُعين.. هذه بنت الهدى.. هذه بقية الأبطال والبطلات من النساء، وكذا هاشمية سدخان، وزينب، وفاطمة من البصرة، ومن الناصرية جابرية، ومن العمارة كثيرات وكثيرات من السيدات تغذين من نفس الفكر.

المرأة في تاريخنا بطولة، واقترن المأمول ببناتنا خصوصاً حين أتحدّث في وسط كوسطكُنّ، وأنتن تنتمين إلى مؤسسة هي أقرب إلى التشريع (بيت الشعب)، أملي بكنّ كبير بأن ترفعن الحيف الذي لايزال يكبّل المرأة. .. كل دول العالم عندما تواجه مشكلة تعمد إلى تأسيس وزارة، فإذا كانت في مكان ما تعاني من بطالة وأزمة عمل تستحدث وزارة تحلّ مشاكل العاطلين عن العمل، ففي أميركا في الـ 11 من سبتمبر عام 2001 حين حصلت القضية الأمنية استحدثت وزارة الأمن مع وجود الـ (FBI وCIA)، وسواها من الجهزة، وأعطتها صلاحيات مفتوحة.

إذا كنا جادّين - وأتمنى أن نكون جادّين - فيجب أن نستحثّ الخطى، ونسرع في تأسيس وزارة اسمها (وزارة المرأة)، لها من حيث الموازنة، والصفة والشخصية المعنوية، والقدرة، والقابلية، والامتدادات، والعضوية المتمثلة في مجلس الوزراء ما ليس لوزراء الدولة.. وزير الدولة يعني مستشار رئيس الدولة لشؤونٍ ما، وكانت تسمى سابقاً (وزير بلا وزارة).

لابد أن تتحوّل إلى وزارة إذا كان لدينا وعي مركّب، وعي ضرورة المرأة في المجتمع وأهميتها في المجتمع، وأنها أم والأم تعني الأصل، وكان لدينا وعي لواقع المرأة والقابليات الخلاّقة الموجودة، ووعي ثالث في المركّب النسوي والتحدّيات التي تواجهها، وما أضافته ركامات الحروب والاغتيالات، وما أفضت إليه حيث عدد كبير من الأرامل.. إذا كان هذا الوعي المركّب متوافراً، فلا ينبغي أن يمنعنا أحد من أن نطالب بأن تكون هنالك وزارة بصلاحيات إضافية؛ وفاءً منا لكل الشهيدات والأرامل وعوائل الشهداء.

السيد الشهيد (قدس الله نفسه الزكية)، لم يكن بعيداً عن شخصية الشهيدة بنت الهدى، بل كان من صُنّاع هذه الشخصية، وذلك لا يُخِلّ في تكوين شخصيتها بالعكس ارتبط بالسيد الشهيد ليس فقط لأنه أخوها، إنما ارتبط به لأنه عالم ومرجع ومفكّر كما هو ارتباط زينب (عليها السلام)، بالإمام الحسين (عليه السلام)، ما كانت العلاقة عاطفية فزينب (عليها السلام)، حضرت كربلاء، ودوّت بصوتها، لا لأنها أخت بالنسب إنما تمشي مع قائد ومعصوم؛ فمارست دورها.

سأل أحد زعماء العالم المعاصرين - ربما يسمع كلامي - صدام: لماذا قتلتَ آمنة الصدر؟ قال له: لا أريد أن أخطئ خطأ يزيد بن معاوية حين لم يقتل زينب، ولو كان قد قتل زينب لخمد صوت الحسين.

هذه هي الحقيقة... المرأة صوت ينبع من العمق، وينفذ إلى العمق... دعوا عنكم ثقافة الغزل.. ثقافة الأنوثة.. ثقافة الإثارة... اتركوا ثقافة العادات والتقاليد فهي لا تقدّم حلاً، الثقافة الحقيقية هي إن المرأة إنسان كما هو الرجل، وهناك خصوصيات في التكوين؛ لذا استهللت بالآية القرآنية الكريمة:
((وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ)).

تذكرتُ الآية القرآنية الكريمة، وأنا جالس بينكم.. قيل: إن أم سلمة قالت: لو إن الله خلقني رجلاً؛ فنزلت هذه الآية الشريفة ، لست هنا بصدد أن أحقق قرآنياً بأن هذه الروايات صحيحة أم خطأ، لكني أذكرها؛ لأنها موجودة في بعض تفاسير القرآن الكريم.. العلوية الشهيدة لم تكن بعيدة عن السيد الشهيد فقد نشأت، وترعرعت في ظل رعايته، وتفتّقت قابلياتها، وشقّت طريقها، وكانت تمارس دورها في ما يسمى اليوم بـ(مؤسسات المجتمع المدنيّ) مثقفةً ومربّيةً تواصل دورها بشكل مستمرّ، صحيح أن المجتمع المدني ليس من مصطلحاتنا، لكن ليس لدينا عُقدة اصطلاحية، وليكن ليس مصطلحنا سواء كان على نظرية جون لوك أو هوبز أو غرامشي يكفي أن نعتقد أن مؤسسة المجتمع المدنيّ عندما تتحرّك كمؤسسة، وكمجتمع ومدنيّ بعيداً عن أصابع السوء فلا يوجد عندنا عُقدة.. كالجامع الذي سُمِّي جامعاً؛ لأنه يجمع الناس، ويُؤدّى فيه نشاطات اجتماعية منها حلّ مشاكل الناس، والترويج لأجواء العلم والتثقف، ويذكّر الناس.. هذا هو الجامع مؤسسة مجتمع مدنيّ.

كثير من عادتنا وتقاليدنا التي تُمارَس، لا تستطيع كبرى المؤسسات أن تؤدّيها فعندما نُفجَع بعزيز نجد الناس تتحرّك بشكل تلقائيّ طواعية يتردّدون على أهل المثكول، ويعطون سمات العزاء، وما شاكل ذلك؛ إذن العلوية بنت الهدى مارست هذا العمل إلى جانب أخواتها في كل مناطق العراق... علينا من الآن وصاعداً أن نرعى المرأة الرعاية المطلوبة، ونستحضر القيم والمبادئ، ونستحضر الحاجات الحقيقية الماسّة والضاغطة في مجتمعنا؛ حتى تأخذ المرأة طريقها في بناء المجتمع.. أتمنى لكُنّ الخير والموفقية..

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.